الفصل الرابع

الجهاد

تم تغيير القبلة فى نهاية فترة من عدم اليقين. كان محمد (ﷺ) وأصحابه يتقلبون هنا وهناك فى قلق، باحثين عن إرشاد فى اضطرابهم. وقد علم محمد (ﷺ) أن على النبى أن يحدث تغييراً فى العالم، ولا يمكنه ببساطة أن ينسحب من التيار الرئيسى للحياة، فعليه أن يضع المشيئة الإلهية فى حيز التنفيذ، ويقيم مجتمع المساواة والعدل. ولكن الهجرة دفعت المسلمين بعيداً عن مركز الأحداث فى مكة، وإلى وضع شاذ. وبرغم أن محمداً (ﷺ) بدأ فى إرساء قواعد الإصلاح الاجتماعى، فقد عرف أنه ليس بمقدوره أن يترك أثراً باقياً فى بلاد العرب ما دام محصوراً ومعزولاً فى المدينة. كانت مكة «أم القرى» هى الحاسمة فى تطوير العرب، حيث احتاج العرب عبقرية قريش التجارية. أصبحت مكة مؤخراً هى مركز العالم الإسلامى، يتجه المسلمون إليها فى الصلاة، ولكنها بدت بعد الهجرة كما لو كانت الحبيب الغائب صعب المنال[1]. لم يتمكن المسلمون من الحج إلى مكة كبقية العرب، وأدرك محمد (ﷺ) أن مكة هى مفتاح نجاح مهمته. استأصلت عداوة قريش الأمة الإسلامية من انتمائها القبلى، وألقت بها إلى سجن العزلة. ودون مكة، سيكون مثال الإسلام التلاشى. على محمد (ﷺ) إذن أن يبرم سلامًا مع قومه، ولكن بعد الصدمة الأولى للهجرة، بدا أن معظم قريش قد نسى المسلمين.

كان على محمد (ﷺ) قبل أن يبحث عن صلح مع مكة، أن يجعل مكة تشعر به، وكان عليه أيضًا أن يؤمن وضعه فى المدينة حيث عرف أنه بالنسبة لأكثر أهل المدينة، كان محل اختبار. لقد تحدت المدينة جبروت قريش بقبول المهاجرين؛ لأنها توقعت

بعض الميزات المادية(*)، ويجب على محمد (ﷺ) أن يوفر ذلك، أو على الأقل عليه أن يمنع إرهاق المهاجرين لاقتصاد أهل المدينة. ولكن كان من الصعب على المهاجرين أن يكتسبوا أرزاقهم، فمعظمهم كانوا تجاراً ومولين، بمثابة بنوك متنقلة، وفرص التجارة فى المدينة قليلة جداً، نظراً لاحتكار أثرياء العرب واليهود التجارة. لم يكن للمهاجرين خبرة بالزراعة، وعلى أى حال، كانت الأراضى الصالحة للزراعة مزروعة بالفعل من قبل أهل المدينة. وبذلك سيصبح المهاجرون عبئًا على الأنصار، ما لم يجدوا مصدراً مستقلاً للدخل، وكانت هناك وسيلة واضحة لتحقيق ذلك.

كان موقع المدينة مناسبًا للهجوم على قوافل مكة التجارية فى طريقها إلى سوريا، وبعد وصول محمد (ﷺ) إلى المدينة بقليل، بدأ فى إرسال عصبات من المهاجرين فى حملات للإغارة[٢]. لم يكن الهدف إراقة الدماء، ولكن تأمين مصدر للدخل من الجمال والبضائع التى عليها، والإمساك بالقرشيين لأخذ الفدية عنهم. لم يكن أحد ليصدم بمثل هذا التطور، فقد كان الغزو حلاً طبيعيًا فى أوقات الشدة، ولكن استغرب بعض العرب تهور المسلمين مع قريش الجبارة، خاصة أنهم كانوا، وبوضوح، عديمى الخبرة القتالية.

أرسل محمد (ﷺ) خلال السنتين الأوليين من الهجرة ثمانى حملات. لم يكن يخرج بنفسه فى تلك الحملات، ولكن كان يفوض أمراء مثل حمزة وعبيدة بن الحارث، ولكن كان من الصعب الحصول على معلومات دقيقة عن خطوط سير قوافل التجارة، ولم ينجح أى من تلك الحملات.

لم تكن قريش قبيلة حرب، فلقد تركت حياة البداوة منذ زمن طويل، وفقدت عادة ومهارة الغزو، ويظهر القرآن أن بعض المهاجرين لم يستحسنوا القتال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١٦][٣].

ولكن لم يثن ذلك محمداً (ﷺ) عن عزمه. ورغم أن المهاجرين كانوا بحاجة ماسة لمصدر دخل، فلم يكن السلب غرضه الأساسى. عاد أولئك المغيرون بأيد

(*) كانت مكة مركز التجارة فى بلاد العرب، فكيف يأمل أهل المدينة أن يحصلوا على بعض الميزات المادية بعدائهم لذلك المركز؟.

فارغة، ولكنهم على الأقل لفتوا نظر مكة للمسلمين. انزعجت قريش، واضطرت لاتخاذ احتياطات لم تفكر فيها من قبل، واشتكى التجار من اضطرارهم لتغيير مساراتهم لأنهم أصبحوا عرضة لهجمات المسلمين، وتعطلت التجارة المكية قليلاً. وفى (وفى ربيع أول ٢ هـ/ يوليه ٦٢٣م)، قاد محمد (ﷺ) بنفسه غزوة على قافلة كبيرة يقودها أمية بن خلف، وكانت الغنائم مبشرة حتى أنه تطوع ٢٠٠ مسلم للحملة، ولكن أيضًا أفلتت القافلة، ولم يكن هناك قتال.

لم يكن الغزو بحاجة إلى تبريرات نظرية فى حياة عرب الصحراء، وكان ينظر إليه على أنه ضرورة لا مفر منها أيام الأزمات. ولكن كان محمد (ﷺ) مصممًا على تجاوز الأعراف القبلية القديمة، أمر القرآن المسلمين أن يقولوا «السلام عليكم» للكافرين، ولم يأمر بمهاجمتهم وهم يقومون بتجاراتهم وأعمالهم، ولكن بعد وصول محمد (ﷺ) إلى المدينة بقليل، نزل عليه وحى ذو نزعة أكثر عسكرية:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [سورة الحج: ٣٩: ٤١](٤).

بدأ القرآن فى تطوير نظرية للحرب العادلة، حيث كانت الحروب الاعتدائية جديرة بالثناء فى حياة عرب الصحراء، ولكن فى القرآن، كان الدفاع عن النفس هو التبرير الممكن الوحيد لأعمال الحرب، وكانت الحروب الاستباقية مدانة:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ [سورة البقرة: ١٩٠](٥).

وكانت الحرب دائمًا شرًا فظيعًا، ولكنها ضرورية فى بعض الأحيان للحفاظ على القيم، مثل حرية العبادة. حتى هنا، لم يتخل القرآن عن تعدديته: يجب حماية معابد اليهود وكنائس المسيحيين، تمامًا كحماية المساجد. شعر المسلمون بأنهم عانوا وطأة اعتداء رهيب؛ فاضطرارهم للخروج من مكة ليس له ما يبرره، وإخراجهم من القبيلة انتهك أعمق المقدسات، وأصاب قلب الشخصية المسلمة.

ولكن محمدًا (ﷺ) اتخذ مسلكًا خطيرًا. قد كان يعيش فى مجتمع مدمن العنف، ولم ير تلك الهجمات - فى وقت شدة الحاجة - كوسيلة للدخل، ولكن - فى الأساس - طريقة لحل مشاكله مع قريش. ولقد اكتشفنا فى حاضرنا أن شن الحروب لتحقيق السلام هو مغامرة محفوفة بالمخاطر. يمكن لقساوة المعارك أن تزلزل المبادئ الرئيسية التى يتقاتل من أجلها المحاربون، حتى أنه يصبح بغير مقدور أى من الطرفين المتقاتلين أن يزعم سعيه وراء المبادئ الأخلاقية. حاول محمد (ﷺ) أن يجعل لغزواته أرضية أخلاقية، ولكن لم تكن لدية خبرة الحملات العسكرية الطويلة، وسيعلم أنه مع بدء الحروب، تتخذ دائرة العنف قوتها الدافعة المستقلة، ويمكنها أن تتصاعد بشكل مأساوى خارج نطاق السيطرة.

فى البداية، حارب محمد (ﷺ) طبقًا للقواعد التقليدية، ولكن فى (رجب ٢ هـ يناير ٦٢٤م)، قبيل تغيير القبلة، خاض تجربته فى الحرب غير المتوقعة(٦). خلال الشتاء، كانت قريش تبعث قوافلها التجارية إلى اليمن فى الجنوب، فلا تمر على المدينة شمال مكة. ولكن كان محمد (ﷺ) دائمًا متلهفًا لجذب انتباه قريش، فأرسل مجموعة إغارة صغيرة من تسعة رجال(*) للهجوم على إحدى القوافل التجارية. كان ذلك فى نهاية رجب، أحد «الشهور الحرم» التى يمتنع فيها القتال فى بلاد العرب، وفى آخر يوم من رجب، وجد المسلمون قافلة صغيرة مخيمة فى نخلة(**)، ماذا يفعلون؟ إذا انتظروا لليوم التالى، حتى ينتهى الشهر الحرام، دخلت القافلة مكة. قرر المسلمون الهجوم، وقتل أول سهم أحد التجار، وفر الباقون، لكن استطاع المسلمون الإمساك برهينتين(***) أحضروهما مع تجارة القافلة إلى المدينة.

ولكن بدلاً من أن يقابلهم المسلمون استقبال الفاتحين، ارتعب المسلمون من ذلك القتال فى الشهر الحرام، ولعدة أيام، لم يدر محمد (ﷺ) ماذا يفعل. لقد تخلى بالفعل عن معظم الديانة المكية، وربما قد تخيل أنه يستطيع التخلص من بقيتها فى مسألة القتال فى الشهر الحرام. كان الهجوم ناجحًا، لم يكن فقط من ناحية الغنائم، ولكنه أظهر لقريش أنه يستطيع مهاجمتها على أعتاب دارها. ولقد أثار محمد (ﷺ) إعجاب أهل المدينة، ولكن كان هناك التباس وريبة فى العملية كلها. لم يسبق لمحمد

(*) وتسمى بسرية عبد الله بن جحش.

(**) وهو بستان ابن عامر الذى كان قرب مكة.

(***) هما: عثمان بن عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان.

(ﷺ) أن أدان تقليد الأشهر الحرم؛ وبدت المصادر [التاريخية] غير مستريحة للحادث. لقد اكتشف محمد (ﷺ) أنه مهما تكون حربك مثالية فى البداية، فسيشوب تلك المثالية أمر ما، عاجلاً أو آجلاً.

وفى النهاية، تلقى محمد (ﷺ) تنزيلاً جديدًا، كرر المبدأ الأساسى للحرب العادلة. نعم، لقد كان من الخطأ انتهاك الشهر الحرام، ولكن سياسة قريش فى طرد المسلمين خارج دورهم ومدينتهم كانت انتهاكًا أشنع، وأخبر القرآن محمدًا (ﷺ): ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾. أما عن القتال فى الشهر الحرام، فقد أجاب القرآن:

> ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾ [سورة البقرة: ٢١٦][٧].

قبل محمد (ﷺ) الغنائم، وأكد للمسلمين أنه سوف يقسمها بين المهاجرين بالسوية، وبدأ يفاوض قريشًا على تبادل أسرى الطرفين، يعيد لقريش أسراهم، وتفرج قريش عن اثنين من المسلمين اللذين منعتهما من الهجرة.

ولكن راق لأحد المكيين المأسورين ما رآه من المسلمين فى المدينة، فقرر أن يدخل الإسلام ويبقى فى المدينة. ويعطى الحادث نموذجًا واضحًا لكيفية عمل محمد (ﷺ) فى وضعه الجديد، ولم يكن يستطيع الركون إلى الإجراءات التقليدية. لقد كان يتلمس طريقه خطوة بخطوة، حسب ما تتكشف عنه الأحداث. لم تكن لديه خطة رئيسية يعمل وفقها، ولم يكن - مثل بعض أصحابه المندفعين - متسرعًا فى مواجهة الأزمات، ولكنه كان يأخذ وقته ليتدبر الأمور، وفى بعض الأحيان كان يعرق بشدة نتيجة مجهوده فى التركيز فى التفكير، ثم يخرج بالحل الذى بدا إلهامًا.

بعد شهور قليلة، وخلال شهر (رمضان ٢هـ / مارس ٦٢٤م)، قاد محمد (ﷺ) حملة كبيرة لاعتراض قافلة تجارية يقودها أبو سفيان عائدًا من سوريا إلى المدينة[٨].

لقد كانت تلك القافلة إحدى أهم قوافل العام، وقد تطوع الكثير من المسلمين لتلك المهمة، بعدما رأوا نجاح سرية نخلة. خرج حوالى ٣١٤ مسلمًا من المدينة إلى ماء بدر، قريبًا من شاطئ البحر الأحمر، حيث أملوا أن يكمنوا للقافلة ويهاجموها. مثلت تلك الحملة أحد أهم الأحداث فى تشكيل الإسلام فى بداية تاريخه، رغم أنها بدت فى وقتها مجرد غزوة أخرى، وبقى الكثير من المسلمين المخلصين فى بيوتهم بدلاً من الخروج لها، ومنهم عثمان بن عفان، الذى كانت زوجته رقية بنت النبى (ﷺ)، مريضة.

ظهر فى البداية أن القافلة ستفلت كالعادة، فقد عرف أبو سفيان بخروج المسلمين، وبدلاً من أن يأخذ طريق الحجاز، اتجه بعيدًا عن الساحل، وأرسل لمكة من يستنجد بها. جن جنون قريش مما اعتبرته إهانة محمد (ﷺ) لهيبتها وشرفها، وعزم كل كبارها على الخروج لإنقاذ القافلة. كان أبو جهل بالطبع متلهفًا على معركة، وانحشر أمية بن خلف البدين فى درعه، وحتى بعض أعضاء عائلة محمد (ﷺ) خرجوا للقتال ضده، بعد اقتناعهم أنه فى هذه المرة تجاوز كل الحدود، فخرج ابنا أبى طالب (عقيل وطالب)، وخرج العباس عم محمد (ﷺ)، وخرج ابن أخى خديجة (حكيم بن حزام) فى جيش مكة الألفى إلى بدر لقتال محمد (ﷺ)، ولم يخرج أبو لهب لمرضه.

وفى تلك الأثناء، استطاع أبو سفيان أن يخدع المسلمين ويفلت بقافلته، وأرسل لمكة أنه فى الطريق إليها وعلى الجيش المكى العودة. تبين المصادر التاريخية بوضوح أنه عند ذلك أصبح الكثير من القرشيين يريدون العودة بدلاً من قتال أقاربهم، ولكن لم يكن أبو جهل ليفوت تلك الفرصة:

> قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ـ وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به كل سوق كل عام ـ فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجذر ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، بعدها، فامضوا. [السيرة النبوية: ص ٤٢٣][٩]

وحتى كلمات التحدى التى أعلنها أبو جهل، لا تنم عن توقع معركة، فهو يتحدث عن أكل وشرب ورقص، وليس عن أهوال قتال. لقد تركت قريش حياة الصحارى العربية، حتى أصبح القتال بمثابة رفاهية تحفظ هيبة مكة.

كانت الروح فى المعسكر الإسلامى مختلفة تمامًا، فبعد أن عانى المسلمون من أذى وإرهاب الهجرة، لم يعد المهاجرون ينظرون للأحداث بثقة قريش ولا بعدم إدراكها لخطورتها. وشاور محمد (ﷺ) رؤساء العشائر أول ما عرف قدوم جيش مكة. كان المسلمون أكثر بقليل من ثلاثمائة بينما كان المكيون أكثر من ألف. خرج المسلمون لغزوة وليس لمعركة مع جيش، والفرق كبير بين الاثنتين. لم يكن محمد (ﷺ) متمرسًا على قيادة الجيوش، ولم يكن يسعه أن يجبر أهل المدينة على القتال خارجها، ولكن كان قرار القتال نابعًا من الرجال أنفسهم، وروى ابن إسحاق قول سعد بن معاذ باسم الأنصار:

> قال ابن إسحاق: قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله (ﷺ) بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله - تعالى - قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم». [السيرة النبوية: ص٤٢١][١٠].

تمرس الأوس والخزرج على القتال فى حروبهما المستمرة فى يثرب، خلافًا لقريش التى تجنبت الحروب لتزدهر تجارتها. ولكن الفرق فى العدد كان هائلاً، وتمنى كل المسلمين ألا ينشب قتال.

طوال يومين، حملق الجيشان كل فى الآخر من طرفى الوادى، وازدانت قريش فى رونقها بملابسها البيضاء وأسلحتها اللامعة، وبرغم خطبة سعد بن معاذ، فقد أراد بعض المسلمين الانسحاب، وكان هناك خوف كبير فى المعسكر. حاول النبى

(ﷺ) أن يرفع معنويات المسلمين، فأخبرهم أن الله وعده بأن يرسل ألف ملك ليحاربوا فى صفه:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [سورة الأنفال: ٥ ـ ٩][١١].

ولكن بينما كانت قريش تحتفل وتشرب، واثقة فى أن المسلمين سوف يستسلمون، كان محمد (ﷺ) يتخذ إجراءات عملية، فقد صف جنوده فى تشكيلات متقاربة، وجعل موقعهم بحيث يمنعون قريشًا ماء بدر، وعندما تبدأ قريش فى قتال المسلمين، تضطر إلى صعود التل والشمس فى أعينها. ومع هذا، فعندما رأى محمد (ﷺ) جيش مكة الكبير، رفع يديه داعيًا:

قال الطبرى: لما كان يوم بدر، ونظر رسول الله (ﷺ) إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيفًا على ثلاثمائة، استقبل القبلة فجعل يدعو يقول: «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض». وقال أيضًا عن ابن عباس، أن النبى (ﷺ) قال وهو فى قبته يوم بدر: «اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم». [تاريخ الطبرى: ٢/ ٤٤٧][١٢].

إذا سمح المسلمون لقريش بأن تعيدهم إلى المدينة، فلن تستطيع الأمة التأثير فى بلاد العرب، ولابد أن بعضًا من عزيمته المعقودة قد انتقل لرجاله. يصف القرآن السكينة التى نزلت عليهم فى تلك اللحظات الرهيبة، ثم هبوب عاصفة ممطرة، مما اعتبروه فألاً حسنًا:

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [سورة الأنفال: ٨ ـ ١١][١٣].

أصبحت قريش أكثر انتباهًا لخطورة الموقف، فبعثت عمير بن وهب الجمحى، وكان صاحب قداح، فقالوا: احزر لنا محمداً وأصحابه، فصوب فى الوادى وصعد، ثم رجع فقال: لا مداد لهم ولا كمين، القوم ثلاثمائة، إن زادوا زادوا قليلاً، ومعهم سبعون بعيراً وفَرَسان. يا معشر قريش، رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، أما ترونهم خرسًا لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعى؛ والله ما أرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتلوا منا رجلاً، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير العيش بعد ذلك؟! فروا رأيكم.

وقال عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا.

ولكن كان أبو جهل ضد أى منطق، واتهم من يعترض على القتال بالجبن، تلك الوصمة التى لا يحتملها أى عربى، فقد أفسد أبو جهل الرأى وحرش بالناس وأمر عامر بن الحضرمى أن ينشد أخاه عمراً، وكان قد قتل بنخلة، فأشعل بذلك شرارة الحرب، ومقاتل كبار القرشيين:

> قال ابن إسحاق: بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمى، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فأنشد خفرتك، ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ثم صرخ: واعمراه، واعمراه. فحميت الحرب، وحقب الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة. [السيرة النبوية: ص ٤٢٦](١٤).

أشعل بذلك أبو جهل شرارة الحرب، وساق كبار القرشيين، وهو من ضمنهم، إلى حتفهم.

ابتدأت قوات قريش فى التقدم على كثبان الرمل نحو المسلمين، ورفض محمد (ﷺ) أن يبدأ الهجوم، وحتى بعيد الاشتباك، لم يكن يريد لجنوده القتال حتى قال أبو بكر له إن عليه تنظيم صفوف رجاله وسوف ينصرهم الله.

ومن أول اشتباك، اكتشفت قريش أنها تتورط من سيئ لأسوأ! فهى تحارب بتكبر وتهور متظاهرة بالشجاعة، كما لو كانت فى استعراض، وبدون خطة، بينما اتبع

المسلمون خطة متقنة، فبدءوا برمى العدو بالسهام، ولم يشتبكوا بالسيوف إلا فى نهاية القتال. على منتصف النهار، كانت قريش ولت هاربة فى فوضى عارمة، تاركة وراءها حوالى خمسين من قادتها(*) - بينهم أبو جهل - قتلى فى ميدان المعركة، ولم يكن هناك بين صفوف المسلمين سوى أربعة عشر قتيلاً. أحاط المسلمون فى ابتهاج بأسراهم وجردوهم من أسلحتهم. فى حرب القبائل، لم تكن هناك رحمة بالمنهزمين، فالمجروحين يمثل بهم، والأسرى بصفة عامة يذبحون أو يعذبون(**). أمر محمد (ﷺ) جنوده أن يمتنعوا عن تلك الأفعال التقليدية، فقد أمره الوحى بأن أسرى الحرب إما أن يعفى عنهم، أو تؤخذ عنهم فدية:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [سورة محمد: ٤ - ٥](١٥).

حتى فى الحرب، تجنب المسلمون عادات الماضى. أصر القرآن باستمرار على أهمية الرحمة والعفو، حتى فى الصراع المسلح:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة النحل: ١٢٦](١٦).

وخلال المعركة، على المسلمين أن يقاتلوا بشجاعة وثبات لإنهاء الصراع بأسرع ما يمكن، ولكن إذا طلب العدو السلام، فعلى المسلمين أن يضعوا أسلحتهم:

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [سورة البقرة: ١٩٢](١٧).

عليهم أن يقبلوا عرض السلام أو الهدنة. وبالرغم من أنه من الضرورى محاربة الاضطهاد والظلم، يذكر القرآن - بصفة مستمرة - المسلمين بأن الأفضل دائمًا هو حل المشاكل بالجدال الحسن:

(*) كان إجمالى عدد القتلى من المسلمين أربعة عشر، ومن المكيين سبعون، والأسرى منهم سبعون.
(**) كذلك كان الحال فى كثير من بلاد العالم، وحتى قرنين أو ثلاثة من اليوم.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الأنفال: ٦١][١٨].

صحيح أن الله سمح بالقصاص فى التوراة، العين بالعين والسن بالسن، ولكن إن تعفوا وتصفحوا خير لكم، ويكفر الله سيئاتكم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [سورة البقرة: ١٧٨]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة المائدة: ٤٥][١٩].

ويحصر القرآن الانتقام فيمن أجرموا، أو العفو عنهم. يعتبر ذلك تقدمًا كبيرًا فى قانون التقليدى الذى كان يسمح بالانتقام من أى عدد من أعضاء قبيلة المعتدى. يذكر القرآن المسلمين بأنهم لا يقاتلون قريشًا كلها، وإنما أولئك الذين اعتدوا عليهم، أما الذين بقوا على الحياد، فلا يجب أن يمسهم المسلمون بسوء:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴿٩٠﴾﴾ [سورة النساء: ٩٠]، ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الممتحنة: ٨][٢٠].

لم يكن محمد (ﷺ) مسالمًا لدرجة رفض الحرب بأى شكل وبأى ثمن، واعتقد أن الحرب فى بعض الأحيان لا مفر منها، بل وحتى ضرورية. بعد معركة بدر، تيقن المسلمون أن قريشًا ستعمل على الانتقام منهم إن عاجلاً أو آجلاً، وأعدوا أنفسهم لجهاد طويل قاس معها. ولكن المعنى الرئيسى لكلمة «جهاد» التى كثيرًا ما نسمعها اليوم، ليس هو الحرب المقدسة، ولكنه بذل الجهد، أو الكفاح، الضرورى لممارسة ما أراده الله من المرء. وعلى المسلمين أن يبذلوا وسعهم فى كل المجالات: الثقافية

والاجتماعية والاقتصادية والروحية والعائلية، طبقًا لما أراده الله منهم، وفى بعض الأحيان سيضطرون للقتال، ولكن ليس هذا واجبهم الرئيسى.

وفى طريق العودة من بدر، أرسى محمد (ﷺ) قاعدة مهمة فى حديثه المشهور «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فإصلاح المجتمع وإصلاح القلوب أكثر أهمية وصعوبة من القتال.

أكسبت بدر محمدًا (ﷺ) وضعًا أعلى فى المدينة، فأبرم ميثاقًا مع قبائل المدينة بما فيها من قبائل اليهود والتى وافقت أن تعيش بسلام مع المسلمين(*)، وعاهدتهم على ألا تعقد أى معاهدات منفصلة مع مكة. كان على كل سكان المدينة أن يدافعوا عنها ضد أى هجوم، وضمن الميثاق الجديد ـ بعناية ـ حرية اليهود الدينية، وتوقع منهم المساعدة «فى أى حرب ضد من دخلوا فى الميثاق»[٢١](**). احتاج محمد (ﷺ) أن يعرف من يقف بجانبه، وغادر المدينة بعض ممن لم يقبلوا الميثاق، ومنهم بعض الحنيفيين الذين أوجب عليهم ولاؤهم للكعبة أن يوالوا قريشًا. ظل محمد (ﷺ) بالنسبة للعرب شخصية مختلفًا عليها، ولكن بعد انتصاره فى بدر، رغبت بعض قبائل البدو فى التحالف معه فى صراعات المستقبل.

كذلك ألمت تغييرات بعائلة محمد (ﷺ)، فقد ماتت ابنته رقية أثناء المعركة، وحزن عليها عثمان حزنًا شديدًا، ولكن عوضه أن يتخذ أختها أم كلثوم زوجة، وأبقى على علاقته الحميمة بالنبى (ﷺ).

كان أبو العاص، زوج زينب بنت محمد (ﷺ) الكبرى، من ضمن أسارى بدر، وقد بقى على دين آبائه. أرسلت زوجته زينب من المدينة فديته، مع سوار فضى كان لأمها خديجة. عرف محمد (ﷺ) السوار ففاضت مشاعره وداهمه الأسى. ترك محمد (ﷺ) أبا العاص يعود إلى مكة طمعًا فى إسلامه، ولكن أصر أبو العاص على الرفض، واشترط عليه محمد (ﷺ) أن يرسل زينب وابنتهما الصغيرة أمامة ليعيشا فى المدينة، فوافق محزونًا. وآن الأوان لزواج فاطمة، فاختار لها محمد (ﷺ) عليًا وبنى الزوجان بيتًا قريبًا من المسجد.

(*) وكان ذلك قبل وقعة بدر.

(**) اتفق أكثر المؤرخين على أن هذه الوثيقة كانت فور هجرته من مكة.

كذلك اتخذ محمد (ﷺ) زوجة جديدة، حفصة بنت عمر، والتى مات زوجها. كانت جميلة وأريبة تقرأ وتكتب مثل أبيها، وكان عمرها عند ذلك حوالى ثمانية عشر عامًا، وكان لها أيضًا طبع عمر الساخن. سعدت عائشة فى الترحيب بحفصة فى عائلة النبى، ولم تغر منها كما غارت من الزوجات الأخريات، فقد جعلت العلاقة المتزايدة الوثاق بين أبى بكر وعمر من ابنتيهما صديقتين، وكانتا تتمتعان بنسج حيل البنات، وبصفة خاصة على سودة، ذات الخيال المحدود والفهم المتأنى.

قد تكون عائشة قد انتقلت لبيت الزوجية فى ذلك الوقت، برغم أن الطبرى قال إنها ظلت فى بيت أبويها لصغر سنها. كان محمد (ﷺ) زوجًا سهل المعشر، وكان يصر على أن تعيش زوجاته فى حجرهن الصغيرة المتواضعة حياة اقتصادية، ولكنه كان يساعدهن فى أعمال المنزل، وكان يقضى حاجاته بنفسه، فيصلح ثوبه، ويرقع نعله، ويعتنى بشياه العائلة. وكان يتبسط أكثر مع عائشة، فيسابقها فى العدو، ومثل ذلك. كان لعائشة لسان فصيح حادٌ، ولم تكن بأى شكل من الأشكال زوجة خاضعة مستكينة، ولكنها كانت تحب أن تدلل محمدًا (ﷺ). تبلل شعرها بالعطر الذى يحبه، وتشرب من القدح نفسه الذى يشرب منه. وفى يوم من الأيام والنبى (ﷺ) عندها منهمكًا فى إصلاح نعله وهى تراقبه، رأت على وجهه نورًا ساطعًا، فأخبرته بذلك، فقام إليها وقبلها على جبينها قائلاً: «يا عائشة لعل الله يحسن جزاءك، فلست مصدرًا لسعادتك، كما أنت مصدرًا لسعادتى»[٢٢].

عاش محمد (ﷺ) بحميمية وسط عائلته وأصحابه، ولم ير تعارضًا بين حياته العامة وحياته الخاصة[٢٣]. كان يمكن لزوجاته سماع كل ما يقال فى المسجد من حجراتهن. سرعان ما لاحظ المهاجرون أن نساء المدينة يختلفن عن نسائهم، وتحكم أزواجهن فيهن أقل مما أعتادوا عليه فى مكة، واكتشفوا أن زوجاتهم يلتقطن ذلك من نساء المدينة.

غضب عمر عندما أصبحت زوجته تراجعه وترد عليه بعض ما يريد، وعندما نهرها على ذلك، أجابته ببساطة إن النبى يسمح لزوجاته بجداله:[٢٤].

> قال عمر بن الخطاب: كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحت على امرأتى فراجعتنى، فأنكرت أن تراجعنى، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبى (ﷺ) ليراجعنه.

وكنا تحدثنا أن غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبى يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابى ضربًا شديداً، وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، قلت: ما هو، أجاءت غسان؟(*)

كانت المشاكل تتخمر، ومَثَّل دمج محمد (ﷺ) المتعمد لحياته الخاصة مع حياته العامة ضربة للمجتمع العربى الذكورى، والذى لا يرضى إلا بالمحافظة على مثل هذه التفرقة بين الرجل والمرأة.

بعد خمود فورة الانتصار، وجد محمد (ﷺ) أنه بالرغم من ارتفاع مكانته فى جزيرة العرب كلها، فإن الخوف من هجوم مكى وشيك، نفخ فى روح المعارضة المدنية لمحمد (ﷺ). دعمت ثلاث قبائل يهودية كبيرة ابن أبى وجماعته: بنو النضير، وبنو قريظة وبنو قينقاع، والتى اعتمدت على تجارتها مع قريش، ولم ترد أى دور فى الحرب ضد مكة. وبعد بدر بحوالى عشرة أسابيع، قاد أبو سفيان غزوة رمزية من مائتى رجل إلى قرب المدينة، وتسلل تحت ستار الليل إلى أراضى بنى النضير، حيث استضافه رئيسهم سلام بن مشكم، والذى أطلعه على أسرار المسلمين، طبقًا لرواية ابن إسحاق:

قال ابن إسحاق: غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق فى ذى الحجة، وولى تلك الحجة المشركون من تلك السنة، فكان أبو سفيان، كما حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، ويزيد بن رومان، ومن لا أتهم، عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان من أعلم الأنصار، حين رجع إلى مكة، ورجع فل قريش من بدر، نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً (ﷺ)، فخرج فى مائتى راكب من قريش، ليبر يمينه، فسلك النجدية، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب، من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل، حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتى حيى بن أخطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له بابه وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه، فأذن له، فقراه وسقاه، وبطن له(**) من خبر الناس. [السيرة النبوية: ص ٥١٢](٢٥).

داومت عيون محمد (ﷺ) على اطلاعه بمجريات الأمور، ومثلت القبائل اليهودية الثلاث خطورة أمنية. فلكل منها جيشها الكبير وجنودها المدربون، فإذا عسكر

(*) رواه البخارى فى: المظالم: حديث (٢٤٦٨)، والنكاح: حديث (٥١٩١)، ويبين الحديث أن قبائل غسان المسيحية بالشام، كانت تعد مع القوات البيزنطية لغزو المدينة، وهذا أحد أسباب غزوة مؤتة.

(**) بطن له: أعلمه.

جيش مكى جنوب المدينة حيث أراضى بنى النضير وقريظة، فما أسهل أن تتحد قواهم ويخترقوا دفاعات المدينة. وإذا هاجمت قريش من الشمال، وهذا هو الأفضل لهم، يمكن لبنى النضير وبنى قريظة أن يهاجموا المسلمين من الجنوب. ولكن كان القلق الأكثر إلحاحًا هو بنى قينقاع، أغنى القبائل اليهودية، والحليف السابق لابن أبى، الذى يتحكم فى سوق وسط المدينة(٢٦). أسس المسلمون سوقًا صغيرًا لا يتقاضى فائدة، مما اعتبرته بنو قينقاع تحديًا مباشرًا لهم، فقررت إنهاء معاهدتها مع النبى (ﷺ) والانضمام لمعارضته فى المدينة. زارهم محمد (ﷺ) فى حيهم، وسألهم باسم ديانتهم المشتركة أن يحافظوا على السلام:

> قال ابن إسحاق: إن رسول الله جمع بنى قينقاع بسوقهم، ثم قال: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم»، قالوا: يا محمد، إنك ترانا كقومك! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس. [السيرة النبوية: ص ٥١٣، ٥١٤](٢٧).

انسحب محمد (ﷺ)، وانتظر متجهمًا تطور الأحداث معهم. بعد أيام قليلة، ثار اشتباك فى سوق بنى قينقاع عندما أهان أحد الصاغة امرأة مسلمة، وطلب من محمد (ﷺ) التحكيم، ولكن رفض رؤساء بنى قينقاع حكمه، وتترسوا فى حصونهم، ودعوا حلفاءهم العرب لمساعدتهم. كان لبنى قينقاع جيش من سبعمائة مقاتل، ولو استجاب لهم حلفاؤهم، لكان بمقدورهم هزيمة جيش المسلمين، بل واستئصال الأمة الإسلامية كلها.

ولكن صمد العرب بجانب محمد (ﷺ)، ووجد ابن أبى نفسه وحيدًا عاجزًا عن نصر حلفائه، وبعد أسبوعين من حصار المسلمين لبنى قينقاع، اضطروا للاستسلام دون قيد ولا شرط، وكان المتوقع من محمد (ﷺ) أن يذبح الرجال ويسبى النساء والأطفال، طبقًا للعقاب التقليدى المتبع، ولكنه استجاب لمناشدة ابن أبى، فأطلقهم جميعًا بشرط أن تغادر القبيلة كلها المدينة فورًا. كانت قينقاع مستعدة للرحيل، بعد أن خاطرت بعداوة محمد (ﷺ)، ولم تقدر شعبيته الجديدة فى المدينة. لم يحتج على ذلك لا العرب من حلفاء قينقاع، ولا حتى اليهود الباقون، فقد كان من المعتاد طرد إحدى القبائل من المدينة إثر الحروب الداخلية الضروس قبل

الهجرة، ولم يمثل خروج قينقاع إلا استمراراً للعملية التى سبقت هجرة محمد (ﷺ)[٢٨]. لم يتم سفك دماء، ولكن وقع محمد (ﷺ) فى مأزق أخلاقى مأساوى، فقد تم تبرير الجهاد ضد قريش على أساس أنها طردت المسلمين من ديارهم، الأمر الذى أدانه القرآن على أنه شر كبير، والآن، اضطر محمد (ﷺ) لأن يطرد قبيلة من موطنها، فوقع بذلك فى فخ التقاليد العربية[*].

توقع أهل المدينة الهجوم المكى الذى لا مفر منه. والآن، وقد مات أبو جهل فى بدر، وبعده بقليل أبو لهب، أصبح أبو سفيان هو قائد قريش، وما أهوله من عدو.

فى آخر الصيف، استولت حملة مسلمين على قافلة مكية كبيرة. لو كان أبو جهل حيّا، لرد فوراً، ولكن أبا سفيان لم يسمح لشىء أن يفسد عليه تخطيطه طويل المدى. كثف أبو سفيان إعداده للمعركة، فبنى تحالفًا كبيراً مع قبائل البدو. وما أن انتهى موسم أمطار الشتاء، حتى تحرك جيش مكى من أكثر من ثلاثة آلاف رجل، وثلاثة آلاف جمل، ومائتى حصان، فى (شوال ٣هـ/ ١١ مارس ٦٢٥م) شمالاً قاصداً المدينة، فبلغها بعد أكثر قليلاً من أسبوع، وعسكر فى شمال غرب المدينة فى السهل المقابل لجبل أحد[٢٩].

لم يعلم أهل المدينة بذلك الغزو إلا قبله بأسبوع، ولم يتمكنوا من جنى محاصيلهم الزراعية، ولكن استطاع محمد (ﷺ) والقادة الذين معه من إحضار الناس من المناطق المحيطة، وتحصنوا فى المدينة. حث أصحاب الخبرة على الحذر. كان من الصعب تحمل حصار فى بلاد العرب، ولكنهم نصحوا بالبقاء، داخل حصون المدينة، وألا يتورطوا فى قتال خارجها مع قريش، والتى ستضطر حينذاك إلى العودة لمكة. من الناحية الأخرى، تحمس الشباب بعد انتصار بدر للخروج لملاقاة قريش، وكانت لهم الغلبة فى النهاية، واضطر محمد (ﷺ)، الذى لم يكن قائداً عامّا، إلى النزول لرأيهم الكارثى. رفضت قبائل اليهود قتال قريش، كذلك رجع ابن أبى بقواته ليواجه محمد (ﷺ) قريشًا بأقل من ثلث عدد قواتها. وعندما بدأ الجيشان التقدم للقتال، مشت هند زوجة أبى سفيان مع القرشيات يحمسن الجيش على القتال بأشعار الحرب والضرب بالدفوف.

(*) من الصعب مقارنة اضطهاد وقمع قريش لمحمد ﷺ والمسلمين، مما أجبرهم على الهجرة، تاركين بيوتهم وتجاراتهم، وموقف محمد ﷺ من بنى قينقاع التى انتهكت ميثاقها مع محمد ﷺ وبادأته بالعداوة.

هزمت مكة المسلمين بحيلة من فرسانها، وأصيب محمد (ﷺ) حتى فقد الوعى، وانتشرت إشاعة قتله. وفى الواقع، أصيب بالذهول، ولكن لم تتحر قريش الإشاعة، وفشلت فى استكمال ما بدأته. استطاع من بقى من المسلمين أن يتراجع بنظام. وأسفرت المعركة عن اثنين وعشرين قتيلا مكيًا، وخمسة وستين مدنيًا(*)، بما فيهم حمزة عم محمد (ﷺ) المشهود له فى ساحات القتال. وقد مثلت قريش بجثث المسلمين، وأخرج حبشى كبد حمزة ليعطيه لهند التى قضمت جزءًا منه انتقامًا من قتل حمزة لأخيها شيبة يوم بدر، ثم جدعت أنفه وأذنيه وأعضاءه التناسلية، وحثت نساء قريش على تقليدها، واتخذن من الأجزاء المبتورة خلاخيل وقلائد، مما أثار اشمئزاز بعض حلفاء قريش من البدو.

وقبل عودة جيش مكة، عرف أبو سفيان ما خيب أمله، فقد كان محمد (ﷺ) ما زال حيًا:

> قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «قل: نعم، هى بيننا وبينك موعد». [السيرة النبوية: ص ٥٤٢](٣٠).

كان من الممكن للهزيمة أن تكون أسوأ لو أن قريشًا أكملت مهمتها لإبادة المسلمين. ومع هذا، كان لهزيمة أحد ضرر نفسى فاجع. وعندما عاد محمد (ﷺ) من المعركة مريضًا ومزلزلاً، سمع نواح نساء الأنصار على قتلاهم. استاء المسلمون بشدة من ابن أبى لرجوعه عن القتال، وعندما أراد التكلم فى المسجد فى يوم الجمعة التالى لأحد، قام إليه رجل من الأنصار فأمسك به، وأخبره أن يصمت، فهرول خارجًا من المسجد فى غضب، ورفض أن يسأل محمدًا (ﷺ) العفو، وبعد أن كان المنافقون من أتباع ابن أبى مذبذبين، صاروا بعد أحد على عداوة مكشوفة مع المسلمين، وزعموا أن انتصار محمد (ﷺ) فى بدر إنما كان فلتة، وأنه جلب الموت والخراب إلى المدينة.

(*) جاء فى الرحيق المختوم أنه قد قتل خمسة وستون من الأنصار، ومخيريق اليهودى الذى قال عنه النبى ﷺ: مخيريق خير يهود، وأربعة من المهاجرين، وسبعة وثلاثون من جيش المكيين، بينما جاء فى سيرة ابن إسحاق أن جميع من استشهد من المسلمين من المهاجرين والأنصار خمسة وستون رجلاً.

ترك المسلمون الذين ماتوا فى أحد خلفهم زوجات وبنات بدون عائل، ونزل الوحى بعد الهزيمة يسمح للمسلمين باتخاذ أربع زوجات، وعلى المسلمين أن يتذكروا بأن الله خلق الناس من نفس واحدة، فكل من الذكر والأنثى متساويان أمام الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيراً (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣)﴾ [سورة النساء: ١ ـ ٣] [٣١].

كثيراً ما تعرض تعدد الزوجات لنقد شديد، على أنه السبب فى معاناة نساء المسلمين، ولكن فى وقت نزول الآيات، كان يعتبر تقدمًا اجتماعيًا[٣٢]. قبل ظهور الإسلام، كان كلٌّ من الرجال والنساء يتخذ عدة أزواج، فكان يمكن للمرأة بعد الزواج أن تظل فى بيت العائلة، حيث يمكن لكل أزواجها أن يزوروها. كان ذلك فى واقع الأمر دعارة مقننة، ولذلك لم يكن النسب مؤكدًا، وكان الأطفال فى العادة ينسبون لأمهاتهم. لم يكن الرجال مضطرين للإنفاق على زوجاتهم، ولم يتحملوا مسئولية أطفالهم[*]، ولكن كانت تلك فترة تحول فى بلاد العرب. أدت فترة الفردية الجديدة إلى أن يصبح الرجال أكثر اهتمامًا بأولادهم، وبأملاكهم الشخصية، وأرادوا أن يرثها أولادهم. شجع القرآن الاتجاه إلى مجتمع أكثر أبوية، وصدق محمد (ﷺ) على ذلك عمليًا بأن يجمع زوجاته فى بيوته، وينفق عليهن، وضمنت آيات تعدد الزوجات فى سورة النساء أن يفعل رجال المسلمين ذلك. كان القرآن مدركًا المشاكل الاجتماعية التى خاطبتها تلك الآيات.

لم تكن النساء قبل الإسلام تستطيع أن تمتلك شيئًا فى بلاد العرب، فكل الثروات لدى ذكور العائلة، إلا فى مكة حيث كان الناس مختلفين قليلاً عن بقية الجزيرة، فاستطاعت بعض النساء الحصول على المواريث والاحتفاظ بالثروات وإدارتها بالتجارة أو غير ذلك، وكانت خديجة مثالاً على ذلك، وإن كان نادرًا فى مكة، وليس له مثيل فى المدينة. سخر معظم الرجال من فكرة أن ترث المرأة، أو تدير

(*) يبدو أن الكاتبة تتحدث عن انتشار الزنا، وليس الزواج، فالعرب كانوا يقتلون أطفالهم من البنات خوفًا من أن يجلبن عليهن العار عندما يكبرن.

أموالها. ليس للنساء حقوق شخصية، كيف يكون لهن؟ وباستثناءات قليلة، لم يفعلن شيئًا لمصلحة الاقتصاد، ولم يشاركن فى الغزو، فهن لم يجلبن أى ثروات للمجتمع. تقليديًا، كانت المرأة جزءًا من أملاك الرجل، وبعد وفاته، تؤول زوجاته وبناته إلى وريثه الذكر، والذى عادة ما يبقيهن بدون زواج، حتى يتحكم فيما لديهن، ويغتنى على حساب فقرهن. جاء نظام تعدد الزوجات - طبقًا للقرآن - بمثابة قانون اجتماعى، ليس بغرض مكافئة الشهية الجنسية للرجال، ولكن لرفع الظلم عن الأرامل واليتامى، وبصفة عامة عن النساء اللاتى كن معرضات للظلم. كثيرًا ما يستحوذ بعض الأنانيين على كل شىء على حساب الضعفاء[٣٣]. كذلك كان كثير من النساء يتعرضن للاعتداء الجنسى ممن يُفترض أن يكونوا حماتهن من الوارثين الذكور، أو حتى يتحولن إلى أملاك تباع فى سوق العبيد، وكان ابن أبى، على سبيل المثال، يجبر إماءه على الدعارة لحسابه. رفض القرآن ذلك بحسم، وضمن للمرأة نصيبًا فى الميراث. كان الهدف من تعدد الزوجات ضمان حماية المرأة بأن تتزوج بكرامة، وحدد التعدد المفتوح السابق[*] بأربع زوجات، مع وجوب معاملتهن بالعدل، مع الامتناع عن سلبهن ممتلكاتهن.

كان القرآن يحاول إعطاء النساء حقوقًا لم تتمتع بها نساء الغرب إلا فى القرن التاسع عشر. كان تحرير المرأة مشروعًا عزيزًا على قلب النبى (ﷺ)، ولكن عارضه بشدة كثير من الرجال فى الأمة، ومنهم بعض المقربين إليه. احتاج تعدد الزوجات المسئول فى ذلك المجتمع قليل الموارد، إلى كثير من الشجاعة والحب، ليتحمل الرجل مسئولية أربع زوجات بأطفالهن. كان المسلمون يثقون فى مساعدة الله لهن:

> ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النور: ٣٢ـ٣٣][٣٤].

أخذ محمد (ﷺ) زمام المبادرة، فتزوج زينب بنت خزيمة [أم المساكين]، وكانت

(*) ليس فى نصوص الكتاب المقدس، بعهديه القديم والحديث، ما يحدد عدد الزوجات.

قد فقدت زوجها فى بدر [أو بعد ذلك]. لم يعامل النبى (ﷺ) زوجاته كقطيع، بل كن صاحباته، مثلما كان الرجال أصحابه، وعادة ما كان يأخذ إحداهن فى غزواته، ويخيب أمال أصحابه عندما يقضى المساء كاملاً معها. ولم تكن النساء تقبعن خانعات، بل كن تتحركن فى المعسكر بكل حرية، تعاينّ كل ما كان يحدث. كانت تلك الحرية مألوفة لنساء الطبقة العليا قبل الإسلام، ولكن أثار ذلك حنق عمر، فصاح مرة فى عائشة وهى فى طرف المعسكر قريبًا من العدو: «جرأتك تجاوزت الحد. ماذا يحدث لك لو حاقت بنا مصيبة أو أخذوك أسيرة؟»(٣٥).

أعطت حياة محمد (ﷺ) العائلية فرصة لزوجاته لدخول عالم السياسة، وأحسسن بالألفة فى ذلك. لم يمر وقت طويل حتى بدأت النساء الأخريات الإحساس بذواتهن وقدراتهن، واعتبر أعداء محمد (ﷺ) ذلك أمرًا معيبًا تجدر مهاجمة محمد (ﷺ) عليه.

كان على محمد (ﷺ) أن يستعيد هيبته بعد أحد، لم يكن يستطيع أن يخاطر بمواجهة أخرى مفتوحة مع قريش، ولا أن يظهر ضعفه. وأظهرت حادثتان فى عام (٤هـ/ ٦٢٥م) ضعف وضعه. سألت قبيلتان من نجد محمدًا (ﷺ) أن يرسل من يعلمهما الإسلام، فأرسل ستة من أقدر الصحابة على ذلك، ولكن خلال رحلتهم، هاجمهم رجال من قديد، مدينة مناة، إحدى الغرانيق. قتل ثلاثة من المسلمين، وأسر الثلاثة الآخرون، وحين حاول أحدهم الفرار رموه بالحجارة حتى قتلوه، وبيع الاثنان كعبيد فى مكة، ثم تم قتلهما خارج الحرم.

وفى الوقت نفسه تقريبًا، طلب، أبو براء رئيس قبيلة عامر من النبى (ﷺ) أن يرسل من أصحابه من يدعو أهل نجد للإسلام. أرسل محمد (ﷺ) أربعين مسلمًا، ذبحتهم كلهم تقريبًا قبيلة سليم، وأثناء هروب أحد المسلمين، مر على رجلين نائمين من بنى عامر، فقتلهما مفترضًا أن قبيلتهما مسئولة عن قتل رفاقه، آخذًا بالثأر طبقًا للتقاليد القديمة.

وعندما عاد إلى المدينة، أخبره محمد (ﷺ) بخطئه، ولكن كانت عادة الثأر متأصلة فى العرب، حتى أنه كان من شبه المستحيل التخلى عنها. أصر محمد (ﷺ) على دفع الدية كاملة للقتيلين، وأدى تصميم محمد (ﷺ) على دفع الدية، برغم حقيقة أن الفاعل الحقيقى للجريمة هو قبيلة سليم، إلى ميل بعض البدو إلى المسلمين. كذلك أدت شجاعة المسلمين الذين قتلتهم سليم إلى أن أسلم بعض أفرادها.

ظل وضع محمد (ﷺ) فى المدينة محفوفًا بالمخاطر، ولم يستطع التخلى عمن يحرسه. وعندما طلب من بنى النضير مساعدته فى جمع مال دية قتيلى بنى عامر، كادت مؤامرة دبرها بعض أفرادها، بإلقاء صخرة ضخمة فوقه، أن تقضى عليه. وعدهم ابن أبى بمساعدتهم، وظنوا أن محمدًا (ﷺ) أصبح بلا تأييد فى المدينة، وأن أهلها سيقفون وراءهم. ولذلك أدهشتهم رسالة مقيتة من قبيلة الأوس، حليفتهم السابقة، بأن نضير نقضت عهدها مع النبى (ﷺ)، ولذلك فإن عليها مغادرة المدينة.

تصرف بنو النضير كما تصرف بنو قينقاع من قبل، فترسوا فى حصونهم، وانتظروا مساعدة حلفائهم، ولكن دون جدوى. بل إنه حتى بنو قريظة أخبروهم أن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم ولا ينتظروا منهم المساعدة. وبعد أسبوعين، تيقن بنو النضير أنهم لا يستطيعون الاستمرار تحت الحصار أكثر من ذلك، وعندما أعطى محمد (ﷺ) أوامره ببدء قطع نخيلهم ـ فى إشارة أكيدة للحرب عند العرب ـ استسلموا متوسلين النجاة فقط بأرواحهم. وافقهم محمد (ﷺ) بشرط أن يغادروا المدينة فورًا، آخذين فقط ما يمكن أن تحمله جمالهم.

حزم بنو النضير ممتلكاتهم، حتى عتبات بيوتهم، بدلاً من تركها لمحمد (ﷺ)، وغادروا المدينة فى موكب يتباهى كما لو كان منتصرًا. لبست النساء أفضل ما لديها وتحلت بكل جواهرها، يغنين مع الدق على الدفوف والطبول، شاقين طريقهن شمالاً إلى الشام، وبقى بعضهم فى واحة خيبر اليهودية، حيث ساعدوا أبا سفيان على بناء تحالف جديد يحث قبائل الشمال للانضمام إليهم فى غزوة الأحزاب التى أرادت استئصال المسلمين(٣٦).

على مدى سنتين فقط، طرد محمد (ﷺ) قبيلتين قويتين من المدينة، ونظم المسلمون السوق الذى خلا من بنى قينقاع. كما رأينا، لم تكن تلك نية محمد (ﷺ)، فقد أراد أن يوقف دائرة العنف والطرد، وليس أن يستمر فيها. أظهر محمد (ﷺ) أنه ما زال شخصًا يحسب حسابه، ولكن لا بد أنه فكر فى عقم مثل هذا النجاح من الناحية الأخلاقية والسياسية أيضًا، فقد بقى خطر بنى النضير فى خيبر القريبة.

كان من المناسب الاستفادة من دعوة أبى سفيان للقتال «فى العام القادم فى بدر» ولكن كان محمد (ﷺ) يغامر بلعبة خطيرة. عليه أن يستعرض القوة، ولكن كانت

قواته مثبطة الهمة عن أن تخوض معركة كبيرة. ومع ذلك، ذهب إلى بدر ومعه ألف وخمسمائة رجل، ومن حسن حظه، أن أبا سفيان لم يحضر بقواته. لم يتوقع أبو سفيان أن المسلمين سيذهبون إلى بدر، وخرج مع جيشه للخروج فقط وليس للقتال، عازمًا على الرجوع سرعان ما يعرف أن محمدًا (ﷺ) لم يخرج من المدينة. كانت سنة شديدة القحط، ولم يكن هناك من الحشائش ما يطعم الجمال في رحلتها، ولذلك مع طعام يكفي أيام قليلة، عاد أبو سفيان برجاله إلى مكة. . وبخه المكيون بمرارة، فقد جعل البدو يعجبون بشجاعة المسلمين(٣٧).

في المدينة، كان وضع محمد (ﷺ) ما زال ضعيفًا:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة النور: ٥٣](٣٨).

ولكن في الجزيرة العربية ككل، بدأ المد لصالحه. كلما سمع عن قبيلة بدوية انضمت للتحالف المكي، أرسل إليها حملة للإمساك بأفرادها وقطعانها، حتى لو في رحلة لمسافة خمسمائة ميل إلى تخوم الشام. في (جماد أول ٤هـ/ ٩ أكتوبر ٦٢٥م)(*)، علم أن بعض عشائر غطفان تخطط لهجوم على المدينة، فعمل على منع ذلك، بأن قاد المسلمين حتى أصبحوا في مواجهة العدو، في ذات الرقاع، وتجنب القتال مرة أخرى، ولكن ظل المسلحون ثلاثة أيام في تلك المواجهة. يوضح كل من الطبري وابن كثير أن المسلمين كانوا خائفين، ولكن يبدو أن غطفان كانت خائفة أيضًا. وفي ذلك الجو الرهيب، نزلت آيات صلاة الخوف:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة النساء: ١٠٢](٣٩).

(*) هكذا جاء في سيرة ابن إسحاق، ويخالفه في ذلك المباركفوري في الرحيق المختوم، ويذكر أن غزوة ذات الرقاع كانت عام سبعة هجريًا، ويقول إن ذلك على خلاف ما قاله عامة أهل المغازي، ويدلل على صحة تأريخه بحضور أبي هريرة، وأبي موسى الأشعري تلك الغزوة.

سمحت الآية للمسلمين أن يغيروا من هيئة الصلاة، وأن يصلوا فى أكثر من جماعة. وفى النهاية، انتهت المعركة قبل أن تبدأ حين انسحبت غطفان، وعاد محمد (ﷺ) إلى المدينة ظافراً بانتصار رمزى. بينت صلاة الخوف كيف أصبحت الديانة الجديدة محاصرة وفى وضع دفاعى، وفى هذا السياق، يجب أن نتعرف على تراجع القرآن الظاهرى عن المساواة الجنسية.

ففى (٤هـ / يناير٦٢٦م)، توفيت زوجته زينب، بعد ثمانية شهور من زواجها. وبعد ذلك بقليل، تقدم محمد (ﷺ) إلى هند بنت أبى أمية، أرملة ابن عمته أبى سلمة، وأخيه من الرضاع الذى مات بعد أحد تاركًا لها أربعة أطفال.

كانت هند ـ أو أم سلمة كما كانت تعرف ـ فى التاسعة والعشرين من عمرها، جميلة، محنكة وفائقة الذكاء. كانت كفيلة بتوفير الصحبة التى فقدها النبى (ﷺ) بوفاة خديجة، وكذلك كانت شقيقة أحد قادة بنى مخزوم، إحدى أقوى القبائل المكية. وكانت هند فى البداية متمنعة عن الزواج بمحمد(ﷺ)، فقد أحبت زوجها حبّا شديداً، وهى لم تعد صغيرة، تتملكها الغيرة، كما أنها ليست واثقة من قدرتها على الاندماج فى عائلة محمد (ﷺ)، هكذا قالت له. رد عليها محمد (ﷺ) بابتسامته العذبة، التى يستسلم لها كل الناس تقريبًا، مطمئنًا بأنها إذا كانت كبيرة فهو أكبر منها، وأن الله سيذهب عنها غيرتها.

كان لها الحق فى أن تقلق، فالحياة فى المسجد [أى فى حجرات زوجات النبى (ﷺ)] ليست سهلة[٤٠]. لقد كانت الحجرات صغيرة جدّاً، وسقوفها منخفضة حتى أنه بالكاد يستطيع النبى (ﷺ) فرد قامته فيها، وكان يقضى مع كل زوجة ليلة بالدور، وكانت حجرة صاحبة الدور بمثابة المقر الرسمى له. لم تكن هناك خصوصية كافية، فزواره لا ينقطعون من المدينة، ثم من كافة أنحاء بلاد العرب، كذلك كانت زيارات بناته وأحفاده. وكان النبى (ﷺ) مغرمًا بالحسن والحسين ولدَىْ على وفاطمة، كذلك بأمامة بنت زينب، والتى كان يحملها على كتفيه إلى المسجد ويصلى بها. كذلك كان دائمًا ما يختلى بأصحابه المقربين: أبى بكر، وزيد، وعلى، وبشكل متزايد عمر.

وبعد أن كان ينتهى من صلاته فى المسجد، يتقاطر الناس حول نبيهم، كل لشأنه، ومنهم من يمسك بتلابيبه، أو حتى يجذبه منها، ومنهم من يصرخ فى وجهه، ومنهم من يتبعه داخل بيته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [سورة الحجرات: ٢، ٤، ٥] (٤١).

وحتى داخل بيته كانوا يتزاحمون، وفى بعض الأحيان على الطعام، أو انتظاراً له:

قال ابن سعد: كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى بيته، بادروه فأخذوا المجالس فلا يعرف ذلك فى وجه رسول الله ولا يبسط يده إلى الطعام استحياء منهم، فعوتبوا فى ذلك فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾. [الطبقات: ١٠/ ١٦٧] (٤٢).

مَثَّلَ ذلك ضغطًا على النبى (ﷺ) الذى كان حييًا خجولاً شديد الحساسية، غير مطيق لروائح الأجساد والأفواه غير اللطيفة. كان يتقدم فى العمر، وبدأ الشيب يظهر فى شعر رأسه، ومع ذلك كان يمشى بنشاط حتى يكاد من يراه يظن أن قدميه لا تلامسان الأرض، وهو قريب من الستين، وذلك ليس بالعمر الصغير فى بلاد العرب، ولقد أصيب فى أحد، وبدأ الضغط المستمر يلوح عليه عندما كانت المدينة تترقب فى خوف العودة ـ التى لا مفر منها ـ للجيش المكى للانتقام، وانقسمت الأمة كما لم تنقسم من قبل (٤٣).

ظهر الشقاق الداخلى بمجرد دخول أم سلمة، المرأة المتميزة، بيت النبوة. استاءت عائشة بشدة، ونما الصدع بين نساء النبى (ﷺ)، والذى انعكس على الأمة. مثلت أم سلمة الطبقة العليا من المهاجرين، بينما كانت كل من عائشة وحفصة أقرب للطبقة الشعبية. واتخذت كل زوجة للنبى أحد الجانبين المتنافسين، وعادة ما اعتمدت أم سلمة على دعم أهل البيت. كان ذلك الانشقاق فى بدايته عند زواج أم سلمة بالنبى (ﷺ)، ولكن سرعان ما ظهر أن الأمة ليست وحدة واحدة، وأن الناس الذين دخلوا الإسلام، توقعوا منه ثماراً مختلفة.

سرعان ما أصبحت أم سلمة المتحدث باسم نساء المدينة(٤٤).

قالت أم سلمة زوج النبى (ﷺ): ما للنساء لا يذكرن مع الرجال فى الصلاح؟ [تفسير الطبرى: ١٠/ ٣٠٠].

جعلت طريقة عيش محمد (ﷺ) وزوجاته فى حجرات مجاورة للمسجد، الذى هو محور حياة المسلمين، زوجات النبى (ﷺ) فى مركز اهتمام المجتمع. كانت كل من عائشة وحفصة ما زالت صغيرة، وفى بعض الأحيان سريعة الانفعال وأنانية لحد ما، بينما كانت أم سلمة مختلفة تمامًا.

بعد زواج أم سلمة بفترة قصيرة، جاءها وفد من نساء المدينة يسألنها: لماذا لا يذكر القرآن النساء إلا قليلاً؟. توجهت أم سلمة بالسؤال للنبى (ﷺ)، والذى، كعادته، استغرق وقتًا يتفكر فى السؤال بجدية. وبعد أيام قليلة، كانت أم سلمة تصفف شعرها فى حجرتها، فسمعت محمداً (ﷺ) يرتل آيات ثورية فى المسجد:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٣٥](٤٥).

بكلمات أخرى، ستبدأ المساواة الكاملة بين الجنسين، فلكل منهما الواجبات والمسئوليات نفسها، وعندما استمعت نساء المدينة لتلك الآيات، عزمن على تطبيق تلك الثورة فى حياتهن اليومية(*).

بدا أن الله فى صفهن، فبعد زمن قصير، نزلت سورة كاملة عن النساء. لم تعد النساء تورث للمواريث الذكور، كالجمال أو نخيل التمر، بل من حق النساء أن يرثن مع الرجال فى تركات المتوفين:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [سورة النساء: ٧](٤٦).

ليس على اليتيمة أن تتزوج بالإكراه من الوصى أو القيم عليها، كما لو كانت جزءًا من الممتلكات المتحركة:

(*) ولذلك هناك قاعدة فقهية بتساوى النساء مع الرجال، إلا فيما جاء فيه نصح صحيح صريح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)﴾ [سورة النساء: ١٩] (٤٧).

وكما كان قبل الإسلام، حافظت المرأة على حقها فى الطلاق، برغم أن من حق الزوج رفض ذلك. كان الزوج فى بلاد العرب يدفع مهراً لزوجته، ولكن كانت عائلة الزوجة تأخذ المهر، والآن أصبحت الزوجة تحتفظ بمهرها، ولا يؤخذ منها حتى بالطلاق، وبذلك تم تأمينها. أصرت شريعة القرآن على أن الناس أحرار ولهم حقوق، وينطبق ذلك على النساء:

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا

فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير (٢٣٣) والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير (٢٣٤) ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم (٢٣٥) لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين (٢٣٦) وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير (٢٣٧) حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين (٢٣٨) فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون (٢٣٩) والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم (٢٤٠)﴾ [سورة البقرة: ٢٢٥ ـ ٢٤٠] ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا (٢٠)﴾، [سورة النساء: ٢٠]، ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا (١) فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا (٣) واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا (٤) ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا (٥) أسكنوهن

مِن حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)﴾ [سورة الطلاق: ١ ـ ٧] (٤٨).

مَثَّلَ ذلك صدمة لرجال الأمة فى القرن السابع الميلادى فى بلاد العرب، أثارت غضبهم. لقد سحب الله امتيازاتهم! لقد كانوا على استعداد للقتال فى سبيله حتى الموت! وغضب رجال الأنصار بصفة خاصة، إذ هل ينتظر منهم أن يقسموا مزارعهم ليعطوا أنصبة لزوجاتهم؟ كيف يمكن لنا أن نعطى جزءاً من ميراثنا للنساء والأطفال الذين لا يعملون ولا يعرفون أن يكسبوا أرزاقهم؟ وهل كان النبى جاداً عندما أخبرهم أنه حتى الفتاة القبيحة يمكن أن ترث ثروة؟ أجابهم النبى (ﷺ) بنعم مطلقة:

قال الطبرى: نزلت آية ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ فى أم كحلة وابنة كحلة وثعلبة وأوس بن سويد، وهم من الأنصار. كان أحدهما زوجها والآخرعم ولدها، فقالت: يا رسول الله، توفى زوجى وتركنى وابنته، فلم نورث. فقال عم ولدها: يا رسول الله، لا تركب فرساً ولا تحمل كلا، ولا تنكى عدواً، يكسب عليها ولا تكتسب، فنزلت «للرجال نصيب». [تفسير الطبرى: ٣/ ٦٠٤](٤٩).

حاول البعض أن يجد ثغرة فى التشريع، ولكن اشتكت النساء للنبى (ﷺ)، وأيدهن القرآن.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ

وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾ [سورة النساء: ١١، ١٢](٥٠).

سألت النساء مطلبًا آخر: ما دام الغزو هامًا بشكل حاسم للاقتصاد، فلماذا لا تتسلح النساء له؟ مرة أخرى، أخبرت أم سلمة محمدًا (ﷺ) بذلك:

قال الطبرى: قالت أم سلمة: أى رسول الله، أتغزوا الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث؟ فنزلت ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. [تفسير الطبرى: ٤/ ٤٩](٥١).

أصاب ذلك المطلب اقتصاد الغزو فى قلبه. فقد مثلت المرأة التى تؤسر غنيمة ثمينة، يمكن بيعها، أو الزواج منها، أو استغلالها كخادمة، أو حتى إجبارها على الدعارة. فإذا سمح للنساء بالقتال بدلاً من الانتظار السلبى للأسر، فستنخفض بشكل كبير غنائم الحرب واقتصادها. شق الخلاف الأمة، وحوصر محمد (ﷺ) بالرجال الغاضبين، والذين أحسوا أن الله يسلبهم ذكوريتهم. ولم يفهم عمر - بصفة خاصة - لين النبى (ﷺ) الزائد مع النساء. ولكن وقف محمد (ﷺ) بحزم، وأعلن أن الله وضح مشيئته.

ولكن النساء اخترن الوقت الخاطئ للتحرك. لم تكن هناك أى فرصة لأن يقبل الرجال ذلك فى وقت تتعرض فيه الأمة للاستئصال. وجد محمد (ﷺ) أن أعداءه فى المدينة يحرزون مكاسب سياسية من تلك التشريعات الثورية فى إنصاف النساء، ووجد أن بعض أصحابه المقربين يعارضون تلك التشريعات، فى تلك الفترة الحاسمة. وصلت الأمور لذروتها فى مسألة ضرب الزوجات(٥٢). منع القرآن المسلمين من إيقاع الأذى بالآخرين، وبدأت النساء فى الشكوى من ضرب أزواجهن لهن، بدعوى أنه يتم عقابهن كما بين القرآن، وبدأت بعض النساء فى رفض معاشرة أزواجهن الذين يضربونهن؛ بل إن فكرة تعرض النساء للضرب دون وجه حق أثارت استياءه (ﷺ):

قال ابن سعد: ما ضرب رسول الله (ﷺ) بيده امرأة قط ولا خادمًا، ولا ضرب شيئًا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله، ولا نيل منه شىء قط فيكون هو

الذى ينتقم من صاحبه حتى ينتهك حرمات الله فينتقم لله . [الطبقات : ١٠/ ١٩٣](٥٣) .

ولكنه كان سابقًا لزمانه . رجال مثل عمر ، وابن أبى ، بل حتى أبى بكر الرقيق ، كانوا يضربون زوجاتهن دون تردد .

عالمًا أن أبا سفيان يحزب الأحزاب لاستئصال المسلمين بالمدينة ، كان على محمد (ﷺ) أن يهيئ الحال لتعبئة الرجال : «حسنًا ، اضربوهن ولكن أسوأكم هو من سيلجأ إلى ذلك» .

قال ابن سعد : إن رسول الله (ﷺ) نهى عن ضرب النساء ، فقيل : يا رسول الله إنهن قد فسدن . قال : «اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم» . [الطبقات : ١٠/ ١٩٤](٥٤) .

نزل وحى يبدو أنه يعطى الأزواج الإذن بضرب زوجاتهن ، ولم يتوقع ذلك محمد (ﷺ) :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النساء : ٣٤ـ ٣٥](٥٥)(*) .

(*) لا تعمم الآية ضرب النساء ، ولكن تتحدث عن النساء اللاتى يخاف أزواجهن نشوزهن ، أى تعاليهن على أزواجهن فعلى الزوج معالجة ذلك : أولاً بالعظة ، وثانيًا بالهجر فى المضاجع ، فإذا لم يستقم الحال بعد ذلك ، فيمكن للأزواج ضربهن ضربًا غير مبرح ، وكفلت الشريعة للنساء الناشزات طلب الطلاق والخلع .
وجاء فى الحديث الصحيح : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى» الترمذى (٣٨٩٥) ، وابن ماجه (١٩٧٧) ، واقرأ خطبة الوداع فى صفحة ١٨٥ ، ١٨٦ ، وفيها بين النبى (ﷺ) أن ذلك عقاب لمن تجعل رجلاً يكرهه الزوج يطأ سريرها ، أو لمن تأتى بفاحشة مبينة . وفى «صحيح مسلم» عن جابر أن النبى (ﷺ) قال فى حجة الوداع : «واتقوا الله فى النساء ، فإنهن عندكم عوان ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه ، فإذا فعلن فاضربوهن ضربًا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .
وقد سألنا المؤلفة عن مصدرها فى أن آية ضرب النساء نزلت قبل غزوة الأحزاب ، فلم تذكره . وجدير بالذكر هنا أن بعد حادثة الإفك ، خاض المنافقون فى السيدة عائشة لمدة تقرب من شهر ، ولا يجد النبى (ﷺ) ما يقوله أى تعرض شرفه وشرف أحب زوجاته ، وبنت أبى بكر الصديق ، أقرب صحابته ، لذلك الإفك شهرًا كاملاً ، والوحى صامت ، فلو كان لمحمد (ﷺ) أن يأتى بشىء من عنده فى القرآن لما سكت كل ذلك . ولقد توفت أم عائشة بعد وقت قليل من حادثة الإفك ، متأثرة بها .

وقال: «لا أتحمل رؤية رجل يضرب زوجته فى فورة غضب».

قال ابن سعد: عن النبى (ﷺ)، قال: «ما أحب أن أرى الرجل ثائرًا فريص عصب رقبته على مريئته يقاتلها». [الطبقات: ١٠/ ١٩٤][٥٦].

أجبره الصراع مع مكة على اتخاذ رؤية وسط، وأن يسلك مسارًا كان سيتجنبه فى الأحوال الطبيعية. لقد نزلت آيات النساء مع آيات الحرب، والتى - بلا مفر - أثرت على كل الأحداث فى المدينة فى تلك الفترة(*).

لقد عرف محمد (ﷺ) أنه لن يكون لديه أمل فى الإفلات من الاستئصال المكى إذا كانت قواته محبطة.

فى (٥هـ/ مارس عام ٦٢٧م)، تحركت الأحزاب التى جمعها المكيون بجيش جرار قوامه عشرة آلاف رجل نحو المدينة[٥٧]. لم يستطع محمد (ﷺ) أن يجمع سوى ثلاثة آلاف مقاتل من المدينة وحلفائه البدو. لم يكن الموقف يسمح هذه المرة بالتهور بالشجاعة، بل حصن المسلمون أنفسهم فى المدينة، فى منتصف الواحة. لم يكن من الصعب الدفاع عن المدينة، فهى محصنة من ثلاث جهات بالأجراف والسهول ذات الصخور البركانية، وكانت مفتوحة فقط من الشمال.

تبنى محمد (ﷺ) خطة سلمان الفارسى، فجمع المسلمون المحاصيل من الحقول المحيطة بالمدينة حتى لا تستطيع الأحزاب تغذية حيواناتها، ثم بدءوا فى حفر خندق أمام الجزء الشمالى المفتوح من المدينة. لقد كان ذلك الخندق مدهشًا، إن لم يكن صادمًا للمفاهيم العربية. لم يكن أى مقاتل جاهلى يحلم بأن يضع حاجزًا يمنع القتال بينه وبين عدوه، ناهيك عن احتقاره لحفر الأرض كالعبيد، ولكن عمل محمد (ﷺ) بين أصحابه، ضاحكًا، ومتندرًا بالنكات، ومنشدًا معهم، ساعد على ارتفاع المعنويات.

عندما وصلت قريش بجيشها، تطلعت إلى الخندق فى ذهول. استغل المسلمون ما استخرجوه من الخندق لبناء سد مرتفع فى جانبهم، أعطاهم ارتفاعه ميزة إطلاق القذائف لأسفل على من يهاجم. تحيرت قريش، فهى لم تر مثل تلك الحيلة من قبل، وأصبح فرسانها - مثار فخرها وابتهاجها - عديمى الفائدة. من آن لآخر كان أحد الفرسان يحاول اجتياز الخندق بفرسه، ولكن دون جدوى.

(*) ليس هناك دليل قطعى على نزول تلك الآية قبيل غزوة الأحزاب، واقرأ فى خطبة الوداع ما قاله النبى (ﷺ) عن النساء.

قال ابن سعد : ثم أجمع رؤساؤهم أن يغدوا يومًا ، فغدوا جميعًا ومعهم رؤساء سائر الأحزاب وطلبوا مضيقًا من الخندق يقحمون منه خيلهم إلى النبى (ﷺ) ، وأصحابه فلم يجدوا ذلك ، وقالوا : إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها . [الطبقات : ٢/ ٦٤][٥٨] .

استمر الحصار لمدة شهر واحد ، ولكن بدا هذا الشهر وكأنه لا ينتهى ، فإطعام أهل المدينة ، فضلاً عن حلفائهم ، كان عبئًا كبيراً . اتهم ابن أبى وحلفه محمداً (ﷺ) بأنه جلب الخراب على المدينة :

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأحزاب : ١٢] [٥٩] .

دعمت بنو قريظة قريشًا جهاراً ، بينما أمد يهود خيبر قريشًا بسرية كبيرة ، بها عدد كبير من يهود بنى النضير . حاول حيى بن أخطب ، رئيس بنى النضير ، إقناع بنى قريظة إما بالهجوم على المسلمين من الخلف ، أو السماح بتسريب ألفين من بنى النضير داخل المدينة ليقتلوا النساء والأطفال المختبئين فى الحصون . فى البداية ، ترددت بنو قريظة ، ولكن لما رأت الجيش المكى بعدده الهائل ، وافق رئيسهم على مساعدة الأحزاب ، وإمدادهم بالسلاح والمؤن . عندما علم محمد (ﷺ) بتلك الخيانة ، تغير وجهه ، وأرسل سعد بن معاذ ، الذى كان الحليف الرئيسى لبنى قريظة ليتفاوض معهم ، ولكن ذلك لم يجد ، وفى وقت ما ، بدأت قريظة هجومًا فعليًا على الحصون فى جنوب شرق المدينة ، ولكن جهودها أخفقت ، ولمدة ثلاثة أسابيع ، لم يكن واضحًا أى جانب ستتخذه .

خاف المسلمون لدرجة الرعب فى غزوة الخندق ، وصفت سورة الأحزاب ذلك :

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[٦٠] .

كذلك كان أهل المدينة يرتعدون من الخوف داخل حصونهم .

وعلى الجانب الآخر ، بدأت أحوال قريش ومن معها من الأحزاب فى الانحدار .

لم تكن لديهم مؤن كافية ، وأدت قلة خبرتهم العسكرية إلى سهولة انهيار معنوياتهم . وأخيراً ، تحطمت عزيمتهم بواسطة عاصفة عنيفة من الرياح دمرت معسكرهم . أدرك أبو سفيان أن الهزيمة لحقتهم ، كانت الجمال والخيل تموت ، وفشلت قريظة فى إمدادهم بالمؤن الكافية ، ولم يعد لقواته خيام ولا نيران ولا أوعية لطهى الطعام .

قال أبو سفيان لرجاله: «اجمعوا حاجاتكم فإنى راحل». وفى اليوم التالى، حين نظر المسلمون من فوق السد الذى بنوه، وجدوا معسكر الأحزاب خاليًا، فقد رحلوا جميعًا.

قال ابن إسحاق: قال أبو سفيان: يامعشر قريش، إنكم والله ماأصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره(*)، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولاتقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل. [السيرة النبوية: ص ٦٣٢](٦١).

ماذا سيفعل محمد (ﷺ) مع قريظة؟ لم يوهن رحيل قريش المعارضة المريرة لمحمد (ﷺ) فى المدينة، والتى اقتنعت أن قريشًا ولا بد عائدة للانتقام من الإذلال الذى تعرضت له، وبالتالى كثفت المعارضة حملاتها ضد محمد (ﷺ). كانت المدينة على أعتاب حرب أهلية، وفى هذا المناخ القابل للتفجير، لم تكن بنو قريظة لتفلت من العقاب. فى اليوم التالى لرحيل الأحزاب، أحاطت قوات محمد (ﷺ) ببنى قريظة، والذين سألوه الخروج بشروط قينقاع أو النضير، ولكن محمدًا (ﷺ) رفض هذه المرة، فقد أثبتت بنو النضير أنها خطر على الأمة، حتى وهى بعيدة عن المدينة. وافق كبار بنى قريظة على قبول تحكيم حليفهم السابق سعد بن معاذ، والذى جرح بشدة فى المعركة(**)، فحمل على محفة إلى حيث كان محمد (ﷺ) وكبار بنى قريظة، ليحكم فى الأمر. سألته بعض القبائل أن يكون رحيمًا بشأن بنى قريظة، ولكنه رآهم خطرًا لا يؤمن شره، وقضى بأن يقتل رجالهم السبعمائة، وتباع زوجاتهم وأبناؤهم فى سوق الرقيق، وتقسم أملاكهم بين المسلمين. عندما سمع محمد (ﷺ) ذلك الحكم قال: «لقد حكمت عليهم بحكم الله من فوق سبع سماوات». وتم تنفيد الحكم فى اليوم التالى.

قال ابن إسحاق: قال رسول الله (ﷺ) لسعد «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة». [السيرة النبوية: ص ٦٣٦](٦٢).

ذلك الحكم الذى تقشعر له الأبدان اليوم، كان يتوقعه الجميع فى بلاد العرب فى ذلك الوقت، بل إنه طبقًا للمراجع التاريخية، حتى بنو قريظة لم يفاجئهم الحكم(***). أرسل الحكم إشارة مروعة ليهود خيبر، وأدرك البدو أن محمدًا (ﷺ) لن يتقاعس عن الانتقام. لقد أظهر قوته فى عرض للتحدى، على أمل أن يردع أى

(*) كان ذلك حيلة نعيم بن مسعود الذى خدع قريشًا وبنى قريظة عندما أخبر كلاً منهما أن الآخر يخطط لما يضره.

(**) توفى بعد غزوة بنى قريظة بأيام قليلة، متأثرًا بجراحه.

(***) علم بنو قريظة أن الأحزاب جاءت لاستئصال المسلمين كلهم، وما يتبع ذلك من استرقاق نسائهم وأطفالهم، ومع ذلك انتهكت ميثاقها مع المسلمين لحساب الأحزاب.

قوى عن محاربته. كان التغيير قادمًا على ذلك المجتمع البدائى البائس، ولكن كان العنف والقتل بذلك المستوى، هو العرف السائد، وإلى حين[٦٣].

ولكن أظهرت الحادثة كيف سيكون محمد (ﷺ) فى المستقبل. ومن المهم ملاحظة أن قتل بنى قريظة لم يتم على أسس دينية أو عرقية، ولم تعترض قبائل اليهود الأخرى فى المدينة على القتل، ولم تحاول التدخل لمنعه، فقد رأته عملية سياسية وقبلية بحتة، ولقد أعدم عدد معتبر من قبيلة كلاب، حلفاء بنى قريظة معهم. لم يكن لدى محمد (ﷺ) معركة ثقافية ضد الشعب اليهودى، فقد قال: «من آذى يهوديًا أو مسيحيًا، فأنا خصيمه يوم القيامة» وقال: «من آذى ذميًا فقد أذانى». فقد أدينت قريظة بتهمة الخيانة، وظلت القبائل اليهودية السبع عشرة تعيش فى المدينة فى أجواء ودية مع المسلمين ولعدة سنوات، واستمر القرآن فى إصراره على تذكير المسلمين بقرابتهم الروحية لأهل الكتاب:

﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦][٦٤].

بعد ذلك، وطوال تاريخ الإمبراطوريات الإسلامية، تمتع اليهود بالحرية الدينية، ولم تصبح معاداة السامية(*) رذيلة لدى المسلمين إلا فى منتصف القرن العشرين عندما اشتعل الصراع العربى الإسرائيلى.

ربما قد بدت مأساة قريظة أمرًا ملائمًا للعرب فى زمن محمد (ﷺ)، ولكنها ليست مقبولة اليوم، ولا كانت ما أراد محمد (ﷺ) إنجازه. كان يريد إنهاء عنف الجاهلية، ولكنه أصبح يتصرف مثل باقى قادة القبائل العربية. لقد أحس أن الحرب فرضت عليه حتى يتمكن من إنجاز سلام دائم، ولكن القتال أشعل قتالاً، وأفرزت دائرة العنف شراسة وفظائع انتهكت تعاليم الإسلام الأساسية.

وعندما ركب ناقته مغادرًا قريظة ومتجهًا إلى مدينة تموج بالاستياء، فلا بد أنه أدرك أن عليه إيجاد طريقة أخرى لإنهاء الصراع. عليه أن يتخلى كلية عن أسلوب الجاهلية، ويبتكر حلاً جديدًا ومختلفًا، تمامًا.

(*) معاداة المسلمين للسامية مصطلح حافل بالأخطاء السياسية والدينية. فطبقًا للكتاب المقدس، العرب ساميون، وكرهت أوروبا - التى ظهر فيها المصطلح - اليهود لأنهم يهود، والعرب يعادون الصهيونية والظلم الذى أوقعته الدولة اليهودية على الفلسطينيين، ودفعت المنطقة العربية ثمنًا فادحًا لقيام دولة إسرائيل، أو دولة اليهود، لمدة تزيد على سبعة عقود، وما زال الدفع مستمرًا ومتزايدًا.